الحسناء والوحش

الأب أنطوان ملكي

من أكثر الحكايات الخيالية انتشاراً في العالم قصة الحسناء والوحش. تعيد الدراسات أصل القصة إلى ما قبل ١٧٤٠، تاريخ أول نشر لقصةٍ بهذا الاسم في فرنسا. التحليلات تنبش أصولاً للقصة في عدة حضارات. أما التاريخ فيقول أن الرواية قد أعيدت صياغتها عشرات المرات، وكُتِبَت قصائد من وحيها، ومُثِّلَت في العشرات من الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية والمسرحيات، وفي أواخر القرن العشرين أُنتِجَت كلعبةِ فيديو وصور متحركة، بلغات عديدة وتماشياً مع مجتمعات مختلفة.

تختلف نسخات هذه الرواية في الكثير من التفاصيل، ككيفية التقاء الجميلة بالوحش، أو وصف قباحة الوحش أو جمال الحسناء، دور عائلة الحسناء، الأحلام التي راودتها وغيرها. يبقى المشترك بين مختلف النسخات هو أن الحب الذي أظهرته الحسناء وعبّرت عنه أسقط قباحة الوحش وأظهر جماله. تختلف الدراسات في تصنيف هذه الرواية، كل بحسب منطلقاتها. لكنّ بالنسبة للإنسان الروحي، الثابت فوق كل دراسة وتحليل وتصنيف هو أن هذه الرواية هي عن قوة المحبة.

لدينا اليوم على شبكات التواصل الاجتماعي، مجموعة من الحسناوات والحسان الذين لا ينفكّون عن وصف قباحة الوحش. وهنا ليس الكلام عن حسن خارجي لهؤلاء، فجمال الشكل نسبي، بل عن شهادات علمية وأبحاث ودراسات، وهي أمور تعتَمدها المجتمعات والجامعات والجماعات لتقول أن حاملها يعرف هذا الموضوع أو ذاك. وهذه الشهادات والخبرات والمعارف تكتسب قيمتها من تأثيرها (impact) وليس من كثرتها، فالكمية لا تنفع، وإلا لَكان القاموس أسمى الكتب على ما يرى أحد الفلاسفة. من هنا يظهر أن هؤلاء الحسناوات والحِسان لا يقيّمون تأثير ما يكتبون، ولهذا يكررونه ويعيدونه ويضيفون إليه، ومتى انتبهوا إلى ملمح قباحة جديد، يذكّرون القرّاء بأنهم أشاروا إلى هذا القبح قبل افتضاحه، وبالتالي ينبغي على القرّاء أن يلاقوهم بالمحبة (like) والإعجاب والتصفيق. وهنا يمكن ملاحظة أن هؤلاء الحسناوات والحسان هم أول مَن يبادر إلى الإعراب عن الإعجاب بعضهم لبعض، حتى أن منهم مَن لا يتردد في إسباغ صفة النبوة على مَن يجيد صفّ الكلام منهم. ومن باب الإنصاف أن هناك مجموعات من الشعب، ليست كثيرة ولا كبيرة، ممن يعبّرون عن الإعجاب ويشاركون إبداعات الجمال تلك، ويسترسل بعضهم حتى التفلّت في تجريح الوحش ووصف بشاعته وحتى شيطنته.

أعلاه، تمّ عرض عناصر تحليل الرواية من الشخصيات إلى الحبكة. أما الموضوع أو القيمة المرجو تقديمها في الرواية فهي ما يلي. الوحش هو الكنيسة الأرثوذكسية. الحسناء هي مجموعات الذين لا ينفكّون ينبشون سلوك العاملين في الكنيسة لينقدوه ويخرجوه إلى حيث يراه كل الناس ويتركونه معلقاً. فالكنيسة بنظرهم قبيحة لأن البطاركة متسلطون مستغلّون للطاعة والولاء، والمطارنة فاسدون لا يقدّرون الرعاية التي تحيطهم بها رعاياهم والدعم المعنوي والمادي والعلمي الذي يتسابق الحسّان والحسناوات إلى تقديمه، والكهنة مجموعة

من الجهّال الوصوليين الواهمين. أما الرهبان والراهبات فهم العقَد النفسية متجسّمة، منحرفون متآمرون منفصمون لا يؤمنون إلا بالخرافات. وفي النهاية، ماذا يكون الشعب في وسط كل هذه القباحة؟ إنه الرعاع؛ المستسلمات والمستسلمون الخانعات والخانعون.

ماذا يجني هؤلاء الحسناوات والحسان من فعلتهم؟ لا شيء إلا نشر الفضيحة والقرف وإبعاد الناس عن الحقيقة، حتى التعمية عنها. هنا ينطبق قول الرب: " تطُوفُونَ الْبَحْرَ وَالْبَرَّ لِتَكْسَبُوا دَخِيلًا وَاحِدًا، وَمَتَى حَصَلَ تَصْنَعُونَهُ ابْنًا لِجَهَنَّمَ أَكْثَرَ مِنْكُمْ مُضَاعَفًا" (متى ١٣:٢٣). أين التعمية؟ بالتركيز على القباحة، ما يخفي الجمال.

لو كانت الكنيسة تخضع لمعايير الأيزو (ISO) لكانت المنظمة الدولية للمعايير قد وضعتها. أساس العلم والاختصاص والخبرة والمعرفة هو القدرة الفعلية على الانتقال الصحيح من النظرية إلى التطبيق. إن وضع الكنيسة في إزاء شرعة حقوق الإنسان والأمم المتحدة هو عمل غير علمي مهما ألبسه القائمون به صفة العلمية، فتاريخ كل هذه الشرائع والقوانين يذكر أمراً من اثنين: إما أنها استوحيَت من الكتاب المقدس وفكر الكنيسة، وعندها لا تعود الموازاة صحيحة. أو أنها قامت للاستقلال عن أي إله، وعندها أيضاً تكون المقارنة قد انتهت*. من أسس لاهوت الكنيسة أن الأرثوذكسية ليست ديناً. وبالتالي مؤسستها، وإن كانت تخضع في الكثير من الأوجه للصفات العامة لأي مؤسسة أخرى، إلا أنها، بطبيعتها، تحتفظ بعامل إلهي، يعطّله القائمون عليها عندما لا يلتزمون، بقدر ما يعطلها منتقدوهم عندما يسقِطون هذا العامل ويتفلّتون. وهنا يتساءل الإنسان العقلاني: هل أوصلت كل هذه القوانين المجتمع البشري إلى الصلاح الذي يُحكى عنه، أم أنها أوصلته إلى البحث عن تبرير السقوط بنظريات إضافية، أدّت في النهاية إلى تشريع السقوط نفسه؟

مَن ينكر أن السقوط يتحكّم في الكثير من مفاصل جسم المؤسسة الكنسية يكون متكاذباً. لكن الحُسن يزرعه الله في الناس ليكشفوا فيه حسناً آخراً، تماماً كمثل رواية الحسناء والوحش. الحب الذي في داخلها كشف جمال الوحش ومحبته وأسقط عنه البشاعة. ماذا لو أنها بادلت قساوته بالقساوة؟ ماذا لو أنها طبّقت على الوحش معايير مسابقات الجمال العالمية؟ النتيجة الأكيدة كانت استبعاد الوحش من المسابقة ورميه في العزلة وقتل العاطفة التي حركتها محبة الحسناء، فأظهرها عطفاً عليها وعلى أهلها، وشجعتها على التعبير عن حبها.

في الكنيسة إكليروس متسلط، من كل الرتب، من البطريرك إلى الشماس، هناك مَن يرى أن غنبازه يجعله بابا (إمبراطوراً)، وهناك مستغلّون للمال وللسلطة وحتى للجنس، وهناك متبلّدون يجدون في الإكليريكانية مخرجاً لهم من الجهاد الذي يسم حياة الناس في الزمان والمكان. لكن هذا لا ينفي أن الكنيسة، بغض النظر عمّن فيها بمن فيهم الحسان والحسناوات، فيها من الجمال لمَن يسعى إليه ويكشفه ويحكي عنه، أكثر بكثير من كل هذه القباحات. يستطيع العارِف بخفايا الأمور أن يحكي ساعات عن خطايا الكنسيين، لكنَّ لحظة واحدة من الحضرة الإلهية، متى اختبرها، تنسيه كل شيء وتنقله إلى مكان آخر. التشويش الذي يجلبه تكرار الكلام عن السوء يُقصي هذه الخبرة بجعل تحققها أكثر صعوبة.

تؤكّد العلوم الحديثة أن تكرار زرع الأفكار يقتل الفطرة. فلو أن هؤلاء الحسناوات والحسان يركّزون على الإشارة إلى الجمال الذي في الكنيسة، ويتركون الشعب لفطرته، لكان على الأكيد منسوب القداسة ارتفع.

إن كان في الناس حسن فهو ليكشفوا فيه الحسن المخبأ منذ الدهور. أما مَن لا يرى الجمالَ في الدنيا إلا في المرآة فهو قاصر عن الكلام عن الجمال، وبالتالي عن المحبة التي تكشف جمال الآخرين.

* على سبيل المثال، يذكر هنري دونان، وهو أحد مؤسسي الصليب الأحمر الرئيسيين، أن حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر ليسا فاعلَين باسم أي إله بل باسم الإنسانية. أنظر

Cotter, Cédric. (2021). The Religious Convictions of Henri Dunant, Founder of the ICRC. https://blogs.icrc.org/religion-humanitarianprinciples/the-religious-convictions-of-henri-dunant-founder-of-the-icrc/